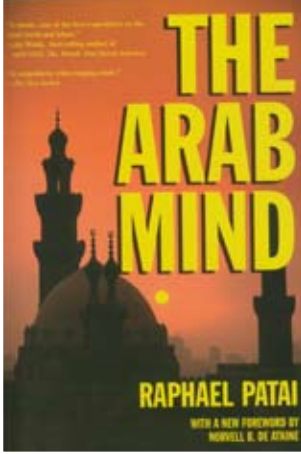


# العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس



## الفصل السابع

### الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

#### 1. الأخلاقيات القرآنية والأخلاق التقليدية

لا شيء يشير بقوة إلى بقاء القيم البدوية في العالم العربي حالياً أكثر من التحقق من الأخلاقيات التي يعتنقها العرب باعتبارها قيماً علياً في حياتهم. إن مثل هذا التحقق يكشف سريعاً عن أن الفضائل التي تظهر أكثر من غيرها في العقل العربي إنما هي ذات علاقة ضعيفة بتعاليم القرآن وتتجاوزته لتعكس على مدى كبير مَثُل القبائل البدوية العربية في عصر ما قبل الإسلام (الجاهلية). ولا يمكن التمييز ما بين هذين المصدرين بسهولة؛ فبعض مَثُل الجاهلية تم دمجها في القرآن والتعاليم الإسلامية. فعلى سبيل المثال ثمة حديث ورد فيه: «انظر أخلاقك التي كنت تصنعها في الجاهلية فاجعلها في الإسلام: أقر الضيف وأكرم اليتيم وأحسن إلى جارك.» وفي الواقع. نجد الوصايا الثلاث ذاتها في القرآن (سورة النساء، الآية 36).

يمكن تلخيص الخصائص الأساسية الأكثر أهمية في الأخلاقيات والفضائل العربية بثلاث متلازمات ترتبط في ما بينها. وهي:

- متلازمة الشجاعة-الحماسة
- متلازمة حسن الضيافة-الكرم
- متلازمة الشرف-الكرامة

ويمكن ملاحظة هذه المتلازمات أينما توجهت في العالم العربي حيث تقوم بتشكيل قوام الأخلاقيات العربية. وقد وجد الباحث السويدي توري نوردينستام (Tore Nordenstam).

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

الذي أجرى دراسة مكثفة على الأخلاقيات العربية السودانية. أن العناصر المسيطرة في هذه الأخلاقيات تتمثل في «مُثل الشجاعة، والكرم وحسن الضيافة، وثلة من الأفكار المترابطة شيئاً ما حول الشرف والكرامة واحترام النفس.» كما أكد على أن هذه الخصائص ليست محصورة بالسودانيين وإنما تكوّن النظام الأخلاقي الذي يلتزم به العرب في الدول الأخرى على حد سواء.

ولا توجد دراسات منظمة أخرى تتناول أخلاقيات شعب عربي آخر. لكن التعليقات التي أدلى بها حول هذا الموضوع دارسو الحياة العربية في دول متعددة تشير جميعها إلى أن الحماسة، وحسن الضيافة والكرم، والشرف واحترام النفس (الذي يوصف أحيانا بالكرامة أو السلوك الملائم) إنما هي الصفات الشخصية الرفيعة التي تنال التقدير الأعلى.

وبالإضافة لذلك، ثمة دليل إحصائي يشير إلى أن العرب يعتبرون القيم ذات النمط السابق (وبالأخص حسن الضيافة والكرم، والبشاشة والفخر، الشرف والصدق) أفضل صفات الشخصية العربية. وهذا يظهر من الدراسة التي أجريت على عرب مدينة الناصرة والقرى المحيطة بها: حيث ظهر بأن 41% من المشاركين الـ 464 يرون بأن على اليهود أن يتعلموا من العرب حسن الضيافة والبشاشة والكرم؛ بينما رأى 19% أن على اليهود أن يتعلموا الفخر والشرف والصدق. ورأت نسبة ضئيلة أن على اليهود أن يتعلموا من العرب أموراً أخرى كالتسامح وعدم التمييز (4%)، وبر الوالدين والتواضع (2%)، والعادات والتقاليد المتعلقة بالطعام والبناء (3%)، والزراعة (2%). إن خلاصة هذه النتائج ذات أهمية خاصة لأن السؤال تمت صياغته في الأصل بشكل لا يحرض على الإجابة بفخر. فلم يكن السؤال: «ما هي أفضل صفات الشخصية العربية؟» وإنما جاء على شكل مبهم: «ما الذي تعتقد بأن على اليهود أن يتعلموه من العرب؟» وفي الإجابة على هذه السؤال كان 60% من الآراء على نحو ما بيناه سابقاً، وهذا يبين أن حسن الضيافة والبشاشة والكرم والفخر والشرف والصدق إنما هي الخصائص التي لا تشكل المثل العربية العليا فحسب، وإنما يؤمن العرب أيضاً بأنها أفضل الصفات التي تمثلهم على وجه الحقيقة. وأنا أعتقد بأن الشريحة التي أجريت

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

عليها الدراسة (عرب إسرائيل) تشرح غياب الإشارة إلى الحماسة والمروعة. وهذا ذكاء دافعه الهزائم المتكررة التي أوقعتها إسرائيل بالعرب. مما يجعل السؤال عن الحماسة والمروعة العربية أمرا لا بد أنهم أحسوا بأنه من الأفضل تحاشيه.

الحماسة والمروعة. وحسن الضيافة والكرم، ومتلازمة الشرف، وجميعها مفاهيم تعود إلى أصول بدوية من عصر ما قبل الإسلام، هي الأكثر استحواذا على الاهتمام عند العرب. وبالرغم من ذلك، فإن جميعها لا تمت بصلة إلى النظام الأخلاقي المذكور في القرآن مع استثناء واحد؛ وبشكل معاكس. لم يتطور أي من التعاليم الأخلاقية القرآنية ليصبح من الخصائص المهيمنة في النظام الأخلاقي الفعلي للفضيلة عند العرب مع الاستثناء السابق نفسه.

يشدد القرآن على العفة ويستثني الممارسات المشروعة مع الزوجات وملك اليمين، ويؤكد على حفظ الأمانة والعهد والشهادة الصادقة، والأمانة في المقاييس والأوزان، وبر الوالدين وتعظيمهما، واللفظ بالأقارب والأيتام والفقراء والغريب المستجير والصاحب في العمل وابن السبيل والعبيد، وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر والتواضع. وعوضا عن إلزامية الثأر الذي يعد جزءا من أخلاقيات الجاهلية، تبين التعاليم القرآنية بأن النبيل الحقيقي يكمن في الصفح وأن من يكبح جماح غضبه ويصفح عن الآخرين سوف يدخل الجنة، كما ينصح المسلمين بأن يكونوا صبورين في البأساء والضراء، ويضع العدل والتعامل المنصف على منزلة سواء مع التقوى، ويفرض على المسلمين دفع الزكاة للفقراء، وعدم أخذ مال اليتامى، والإطعام عند المجاعة لليتيم القريب والمسكين وتحرير العبيد والإيمان والحث على التسامح والتعاطف مع الآخرين. كما يوصي القرآن باجتنب التبذير والبخل على حد سواء، وعدم قتل الأولاد خشية الفقر، وعدم ارتكاب الزنى والمثلية الجنسية، وعدم ارتكاب القتل دون وجه حق، والتورع عن شهادة الزور، والامتناع عن أخذ الربا، وعدم التعالي والفخر والاختيال على الناس.

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

وهناك وصايا خاصة بالنساء وردت في القرآن. مثل: الاحتشام والخشوع في الصلاة وإعطاء الصدقات وطاعة الله ورسوله. وأن عليهن مثل ما على الرجال من الإيمان والصدق والصبر والخشوع والصدقة والصوم والحرص على العفاف والمداومة على ذكر الله.

ومع أن تلك الوصايا جميعها هي في الواقع معروفة جيدا لعامة العرب الذين يطيعونها أو يتصرفون بناء عليها. فإن وصية واحدة من هذه القائمة الطويلة هي التي يعتبرها العربي مبدأ أساسيا في النظام اليومي لممارسة الأخلاق: وهي التي تقتضي الحفاظ على الاحتشام الجنسي للمرأة. وإذا ما صح القول بأن هذه الوصية أعطيت للنبي محمد من أجل دفع النساء للتخلي عن العادات غير الأخلاقية التي سادت في عصر الجاهلية. فإن هذا الاعتبار على الأقل يجعل الأعراف الإسلامية تنجح في إحداث انقلاب كامل. وبالإضافة إلى ذلك توجد علاقة ما بين الوصايا القرآنية المتعلقة بالإحسان إلى الأيتام والفقراء وذوي القربى والغرباء والعبيد. وبين حسن الضيافة والكرم التي تفرضها الأخلاقيات العربية العظيمة. لكن هاتين الوصيتين ليستا متماثلتين ما بين القرآن والأعراف العربية. والصيغة القرآنية أقل حدة وذات مجال تطبيقي ضيق. أما كافة العناصر الأخرى المكونة للنظام الأخلاقي العربي الحديث فتعود إلى ما قبل الإسلام. وبهذا تفرض على العرب قانونا قد يؤدي أحيانا إلى التناقض مع تعاليم الإسلام المنصوص عليها في القرآن والتي تطورت إلى القانون الذي يدعى بالشريعة. وكانت الخصال التي تغنى بها شعراء الجاهلية باعتبارها فضائل عليا هي: الحماسة، والمروءة، والشرف. وحسن الضيافة - وهذه الخصال بالذات لها أهمية خاصة كونها لا تزال تحتل المركز الرئيسي في الأخلاقيات العربية.

أما الأمر الثاني الذي يصدمننا عند المقارنة ما بين الأخلاقيات القرآنية والعرف العربي فهو أنه من ضمن العدد الكبير من الفرائض الأخلاقية التي ينص القرآن عليها لا يوجد غير خمس أو ست فرائض أساسية فعلية تملأ طيف الأخلاقيات العربية. وحتى أن هذه الفرائض الخمس أو الست قد تقلص إلى واحدة تظهر بمظهر الهدف الأخلاقي الأعم للعرب: وهو المحافظة على احترام النفس.

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

وبالعكس مما يتوقعه المرء من المعنى الحرفي لمفهوم (احترام النفس أو الذات). وهي الفريضة الأخلاقية العربية المطلقة. فإن هذا التقييم المهم جدا للشخصية العربية لا يستند إلى مقدار سلوك الفرد نفسه بقدر ما ينطلق من الموقف والعلاقة التي يبديها تجاهه الآخرون في المجتمع الذي ينتمي إليه. وبالطبع، يمضي الأمر دون ذكر الحاجة إلى أن يتصرف المرء بطريقة محترمة. وعضوا عن تصرفه الخاص. يعتمد احترام النفس عند العرب على ما إذا كان الآخرون يحترمونه أم لا: أي ما إذا كان الآخرون يبدون موقفا محترما تجاهه. أو يعاملونه بالاحترام الذي يرى أنه يستحقه. ولذلك فإن العرف السلوكي الذي يتبعه الفرد هو في الأساس محصلة وجدت أصلا من أجل تكوين انطباع لدى الآخرين الذين تحثهم تلك الخصال على احترامه. ويعبر بيير بورديو (Pierre Bourdieu) عن ذلك، عند ذكره لمجتمع القبائل في منطقة شمال أفريقيا (والتي تعكس وفق هذا الاعتبار -كما غيره- العديد من الأعراف العربية بأمانة). بقوله: «إن الرجل ذو الخصال، أعني الرجل الذي ينتبه دائما لكل ما يهدد احترام النفس لديه: يجب أن يكون حذرا في اختيار الكلمات... أما الرجل الذي يعاني من نقص في احترام الذات... فهو الذي يكشف ذاته الداخلية بكل ما فيها من أخطاء وضعف...» وينتقل بورديو بعد ذلك إلى ملاحظة «الخوف من التعرض للعار والشنار. وهو الجانب السلبي لمفهوم الشرف. يجبر الرجل الذي لا يحظى باحترام النفس إلى التصرف وفق مقتضيات الشرف تحت وطأة الإكبار والضرورة... والرجل الشريف شريف بذاته.»

يمكن ملاحظة العرف ذاته ساريا عند بدو الصحراء الغربية في مصر. إذ يعتمد شرف الجماعة على ما إذا كان الآخرون يتواصلون معها بالقدر المطلوب من الاحترام. ويقول في ذلك الباحث أحمد أبو زيد: «إذا وُجّهت إساءة إلى شخص أو مجموعة تنتمي إلى مجموعة قبلية أكبر فهذا يعتبر إهانة لا تغتفر وتستدعي انتقاما فوريا لغسل العار واستعادة الشرف والعلاقات ذاتها التي كانت متبادلة بين الجماعات المختلفة.» ويمضي نوردينستام أبعد من ذلك من خلال ملاحظاته على السودانيين العرب ليقول: «احترام النفس يعتمد بالكامل على الاحترام الذي يبديه الآخرون.» وهذا بدوره يقوده إلى الاستنتاج بأن أنظمة الفضيلة

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

لديهم تحدد خارجيا على مستوى واسع. وبعبارة أخرى: إنهم يشددون على أهمية كسب احترام الآخرين. وإن السودانيين العرب (والعرب ككل اعتمادا على الاستقرار المبني على دراسات أجريت في دول عربية أخرى) يتصرفون وفقا لمنحى خارجي واضح. والمصطلح الأخير يعني بأن دوافعهم ونواياهم وأحاسيسهم ومواقفهم...الخ ليس لها أهمية ما دام المرء يتصرف وفق ما يتوقع منه كسلوك تجاه الآخرين. وبسبب هذا التحريض الطاغي فإن العرب تكيّفون على نحو واسع: فهم يتقبلون أخلاقيات المجتمع بدرجة عالية.

### 2. الوجه

للشرف ميزة يحددها الآخرون وتتوجه تحت تأثيرهم ونعثر عليها واضحة في مفهوم أشرنا إليه سابقا. وهو مفهوم «الوجه» الذي أوردنا فيه قولا يعبر عن انحطاط الشرف بعبارة «تسويد الوجه». وهذا المفهوم له وجود مماثل في المفردات اللغوية الغربية: إذ يوجد في اللغة الانكليزية تعبير «فقدان الوجه loss of face» وله نفس معنى العبارة العربية السابقة. وفي كلا الثقافتين، العربية والغربية، يعبر «الوجه» عن المظهر الخارجي للشرف، و«الجهة» التي يستमित المرء في الدفاع عنها حتى وإن كان ارتكب بالفعل عملا مشينا. وما دام هذا العمل الشائن خفيا عن الأعين فهو يحفظ «وجهه». أما إذا انكشف ذلك للعيان فسوف «يسود وجهه». إن «تسويد» الوجه يعني أن اللون الأسود عار، و«الأبيض» لون مشرف. وعليه، عندما يرتكب الفرد عملا يعلي من شأن قومه سيقول له كبار القوم: «لقد بيّضت وجهنا».

يوجد فرق كبير ما بين مدى تأثير مفهوم «الوجه» على التفكير وسلوك الناس عند المقارنة ما بين العالمين العربي والغربي. فبعبارة موجزة يمكن القول بأن «للوجه» في العالم العربي اعتبار أقوى بكثير مما هو عليه الحال في الغرب في تقييم أقوال المرء وأفعاله. ويتفاقم هذا الفرق بين العالمين ليكون فريدا من نوعه. لذلك من المفيد أن نقدم

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

في ما يلي نقاشاً أكثر تفصيلاً في موضوع الوجه وتأثيره في النفسية العربية. ودعنا نبدأ بالمثل التالي.

في ساعات الفجر الأولى من يوم الاثنين الخامس من يونيو 1967، دمرت القوة الجوية الإسرائيلية معظم الطائرات المقاتلة المصرية دون خسائر تذكر. وفي حوالي الساعة التاسعة صباحاً أرسل المشير عبدالحكيم عامر، قائد القوات المصرية في القاهرة، رسالة مشفرة إلى الفريق عبدالمنعم رياض، المسؤول عن القوات العربية على الجبهة الأردنية. وكانت الرسالة تحتوي الآتي وفق ما ذكره الملك حسين بن طلال، ملك الأردن:

1. باشرت الطائرات الإسرائيلية قصف القواعد الجوية المصرية، وتم لحد الآن تدمير وإعطاب 75% تقريباً من الطيران المعادي.
2. يتوجه الطيران الحربي المصري الآن بطلعات مضادة إلى إسرائيل. وفي سيناء، اشتبكت القوات المصرية مع العدو وحازت زمام المبادرة على الأرض.
3. نتيجة لذلك، أصدر المشير عبدالحكيم عامر أوامره لقائد الجبهة الأردنية (الفريق عبدالمنعم رياض) أن يفتح جبهة جديدة ويشن عمليات هجومية طبقاً للخطة المرسومة في اليوم السابق.

وفي رسالة ثانية بعد ساعات قلائل، أخبر المارشال عامر الجبهة الأردنية بأن هجمات الطيران الإسرائيلي مستمرة. لكنه، وفي الوقت نفسه، أكد بأن القوات المصرية عطلت 75% من القوة الجوية الإسرائيلية. وورد في نفس الرسالة أن الطائرات المصرية دمرت القواعد الجوية الإسرائيلية في هجوم معاكس، وأن القوات البرية في الجيش المصري توغلت في إسرائيل في طريقها إلى النقب!

ويحطّ الملك حسين في تحليله لرسائل المشير عامر من قيمتها وفق رؤيته التي تحمل طابع المعاهد العسكرية البريطانية التي تعلم فيها أكثر من البلاغة العاطفية

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

التي اتسم بها أسلافه الهاشميون. حيث يقول: «هذه التقارير -إن كانت تقارير- شديدة الصلة بارتباكنا وتفسيرنا الخاطيء للوضع.»

لا يصادف المرء دائما مثالا كهذا يظهر كلاً من الضرورة القصوى لحفظ الوجه والثمن الذي يقتضيه ذلك. وبينما لا يمكن لأحد أن يتصور ماذا كان سيحدث لو تحدث المصريون مع الأردنيين بصراحة ودون تحفظ في صبيحة الخامس من يونيو 1967 وأخبروهم بأنهم عانوا نكسة خطيرة، فإنه ربما يكون من المؤكد أن الأردنيين كانوا ليفعلوا أحد أمرين: إما تجنب دخول الحرب، أو الخروج منها بخسائر أقل. لكن الشعبين كليهما، بالإضافة إلى قادتتهما، مرتهنون لقيمهم الثقافية في العادة، وإذا ما أخذنا القيمة العربية التقليدية لمفهوم «الوجه»، فإن من المستحيل للقيادة العسكرية المصرية في ذلك الوقت أن تتصرف بشكل يختلف عما كان. وقبل أن نلقي نظرة أقرب على مفهوم «الوجه» والسيطرة التي يمارسها على النفسية العربية، لنخرج أولاً بمحصلة من قصة الحوار المصري-الأردني في حرب الأيام الستة عام 1967 لما يقدمه ذلك من ضوء إضافي على السيطرة الطاغية التي يتمتع بها «الوجه».

في ذلك اليوم المشحون، الخامس من يونيو، أخبر الرئيس جمال عبدالناصر الملك حسين هاتفياً بالقصة نفسها: «قصفت إسرائيل قواعدنا الجوية. ورددنا على ذلك بقصف قواعدنا الجوية. إننا نشن الآن هجوماً شاملاً في صحراء النقب.»

في صباح اليوم التالي، وعندما أصبح الضرر الذي تسببت به هجمات الطيران الإسرائيلي أمراً لا يمكن التستر عليه مدة أطول، اقترح الرئيس جمال عبدالناصر في مكالمته هاتفية مع الملك حسين أن يتم إصدار بيان رسمي من قبل الأردنيين، بالإضافة إلى السوريين، حول تأثير دعم الطيران الأمريكي والبريطاني لإسرائيل من خلال استعمالها حاملات الطائرات التابعة لهما في الهجوم على مصر. وبدت هذه الخطة في وقتها ممتازة لحفظ الوجه؛ فإسرائيل الصغيرة لم تعد هي التي تدبرت أمر ضرب مصر، وإنما القوى العظمى، الولايات

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

المتحدة وبريطانيا. اللتان ليس من العار الاستسلام لهما. ومع ذلك، وفي نفس المكالمة الهاتفية التي اقترح فيها التصرف الحافظ للوجه على الملك حسين، لم يستطع الرئيس عبدالناصر أن يقاوم إغراء الاستمرار في محاولة الحفاظ على وجهه (وجه مصر) قبالة حسين نفسه، فقال:

سنقاتل بكل ما لدينا، إننا نقاتل على جميع الجبهات طوال الليل، وإذا حدث معنا بعض المشكلات في البداية، فما الضير في ذلك؟ فسنخرج من ذلك على أحسن ما يرام، إن الله في جانبنا.... لقد أرسلنا طائراتنا لمواجهة إسرائيل اليوم، وهي تقصف المطارات الإسرائيلية منذ الصباح الباكر.

بعد ساعات قلائل، وفي الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا، أرسل الملك حسين برقية إلى عبدالناصر يخبره فيها ببساطة وموضوعية (ولنتذكر مرة أخرى هنا دراسة الملك حسين في بريطانيا) بأن الوضع ميؤوس منه على الجبهة الأردنية. إن هذا الاعتراف الصريح بالهزيمة حطّم أخيرا السيطرة التي كان «الوجه» يمارسها على عبدالناصر. فأصبح قادرا في رده (الذي أرسله بعد تأخر دام 11 ساعة، في الحادية عشرة والربع ليلا) على أن يعترف بأنه، أيضا، قد تعرض للهزيمة. وجاء خطابه الطويل الذي بُثّ على الناس ليتكلم عن «اللحظات الحرجة التي تدعى للأمم لمعاناتها»، وعن وضع «يتطلب شجاعة تتجاوز قدرات الإنسان»، والحاجة إلى «التصدي لمسؤولياتنا دون خوف من العواقب». ثم ربط عبدالناصر اعترافه بهزيمته الخاصة مع هزيمة الملك حسين فقال: «إننا مدركون تماما لوضعك الصعب في نفس الوقت الذي تعاني فيه جبهتنا الانهيار أيضا». وأخيرا، استطاع عبدالناصر أن يصل إلى مراده فقال: «أمس، وجه الطيران الحربي المعادي ضربة قاضية لنا. ومنذ ذلك الوقت، وقواتنا دون دعم جوي مجبرة على الصمود في وجه القوى العظمى». بعد ذلك استمر عبدالناصر في الحديث عن أمور لا علاقة لها بالحدث الراهن: «عندما تدوّن كتب التاريخ، فستذكر فيها شجاعتكم وإصراركم. ولن تنسى الشعب الأردني البطل الذي مضى قدما إلى المعركة دون تردد، غير مهتم سوى بالشرف والواجب». وبعد أن اقترح إخلاء الأردنيين للضفة الغربية، وعبر

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

عن أمه بأن يصدر مجلس الأمن قراراً بوقف إطلاق النار. علق عبدالناصر متفلسفاً: «تاريخ الأمم مليء بالنكسات. والانتصارات والهزائم...» وأنها «مشيئة الله - وربما يأتي منها خير ما. إننا نثق بالله وهو لن يتخلى عنا. وربما. وبفضل منه. ستأتي الأيام القادمة بالنصر لنا.» وبعد أن يكرر إطراره لشجاعة وبطولة الملك حسين والشعب الأردني. يختم عبدالناصر برقيته بالتحية التقليدية «والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.» وفي نسخة من النص الكامل لبرقية عبد الناصر يعلق الملك حسين منتقداً: «توجب على الأردنيين أن ينتظروا 48 ساعة ليعلموا حقيقة ما جرى في مصر عند بداية الصراع والذي حدد نتيجة الحرب.»

لا يقتصر معنى كلمة (وجه) عند العرب على ذلك الجانب من الرأس، والجانب الخارجي، والمظهر الخارجي، والسطح، وما شابه؛ وإنما تأخذ معاني أبعد مثل: المرتبة الأولى، وموضع الشرف، والفائدة، والتفوق، والرضى الذاتي، والشخصية الرائعة، والأمير، والنبيل، والرجل الشريف؛ والبدية، والنية، والغرض (من الكلام)؛ والسبب، والمنشأ، والاحترام، واللباقة، والأدب، والترف، والثروة؛ والمرتبة، والدخل؛ والجاه، والأهمية، والاعتداد بالنفس؛ وكثير مما شابه ذلك. ورغم ما تبدو عليه هذه القائمة من الاضطراب فإنها تشير بالتأكيد، حتى لمن لا علم له باللغة العربية، إلى أن «حفظ وجه» العربي قضية تهتم العربي بشكل أكبر بكثير مما هو الحال عليه لدى الناطقين بالانكليزية. ففي الانكليزية لا يعني «فقدان الوجه loss of face» فقدان الشرف بأي حال من الأحوال: فكل المعاني المختلفة لكلمة (face) تتعلق بالسطح والجانب الخارجي. أما بالنسبة للعربي، من جهة أخرى، فإن «الوجه» و«الشرف» مفهومان منفصلان ومميزان، لكنهما يقتربان من بعضهما بشدة. «فالشرف» يحاذي «الوجه» بشكل خطر دائماً، و«فقدان الوجه» يلقي بظلاله دائماً على الشرف إلى حد ما، لذلك تبذل جهود كبيرة جداً من أجل الحؤول دون ذلك في العالم العربي. وعلى سبيل المثال، من المبرر أن يلجأ العربي إلى الموارد من أجل الحفاظ على وجهه، ويصبح الكذب واجباً في سبيل الحفاظ على وجهه الآخرين.

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

إن الأعراف الناظمة للسلوك الحسن تلزم العربي بأن يعمل جاهداً من أجل الحفاظ على وجهه. فتراه يتقبل الأذى الجسدي وحتى الخطر في سبيل ذلك. وهذا الموقف يتأتى من العديد من الأمثال التي تعمل عباراتها البليغة عمل قوالب لتشكيل التقاليد الاجتماعية. مثل: «اللهم لا تدع يدي اليسرى بحاجة ليدي اليمنى.» و«الموت جوعاً خيراً من طلب العون.» والعديد من الأقوال تحث على المحافظة على المظاهر في صحبة الآخرين. سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء. وللحفاظ على «وجهه». يفضل العربي الجائع أن يرفض الدعوة لتناول الطعام مدعياً بأنه قد أكل للتو. وذلك مخافة من أن يتوقع مضيفه بأنه فقير أو لا يملك ما يكفي من الطعام. وعضاً عن طلب العون. يفضل العربي أن يتصنع ويقول: «الحمد لله. حالتي جيدة وعندي الكفاية.» وذلك لأن طلب العون أو قبوله يعني نقصاً في «الوجه». إن هذه السيطرة الطاغية التي يمارسها «الوجه» على العربي تجعله يبذل جهوداً جبارة لإخفاء مشاكله عن الأصدقاء. دون الكلام عن الأعداء.

وتشيع بشكل كثيف في العالم العربي ظاهرة تعرف في عالمي السياسة والاقتصاد في أمريكا بـ«تسليط الضوء على صورة المرء projecting one's image». ويلاحظ البروفسور كارلتون كوون (Carleton S. Coon). وهو باحث أمضى عمره يدرس الشرق الأوسط. أن للعربي «نوعين من أنواع الشخصية على مستوى الفعل: واحدة يقدم نفسه بها للعالم الخارجي. وأخرى يعرفها أقرباؤه.» وتحتاج هذه الملاحظة الدقيقة إلى القليل من التعديل: سواء أكان سلوك العربي موجهاً نحو العالم الخارجي أو الأقرباء. فإنه يطيع الأوامر أو القوانين. مهما اختلفت. والتي يفرضها عليه ضرورة «تسليط الضوء على صورته» وذلك من أجل أن يحفظ وجهه. وبينما يجد المرء بعض الراحة في رفقة قريب له. فإن شخصيته الحقيقية تبقى مخفية حتى عن أقاربه.

وبالعودة إلى الموقف الذي أشرنا إليه سابقاً. يتضح بأن الرئيس عبدالناصر والمشير عامر كانا عاجزين عن سلوك طريق آخر غير الذي سلكاه. إذ لم يترك لهما التكييف الثقافي خياراً آخر غير «الحفاظ على الوجه».

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

ويمكن الذهاب أبعد من ذلك وملاحظة الاختلاف ما بين البيانات البسيطة والموجزة نسبيا التي أصدرها عبدالناصر وعامر لإخبار الملك حسين «بالنصر» المصري على الإسرائيليين. وما بين اللغة العاطفية والتكرارية والتأكيدية التي استخدمها عبدالناصر لإقناع الملك حسين بقراره إعلان المشاركة الوهمية للقوات البريطانية والأمريكية في الحرب. وبما أن الملك حسين ظل إبان سنوات تنشئته في بريطانيا متمتعا بالأذن التي تلتقط المعاني المختلفة خلف الألفاظ. وهي أداة لا غنى عنها في التواصل ما بين العرب. فقد فهم أن النصر «الحقيقي» على إسرائيل الذي يعلنه عامر وعبدالناصر في خطاب طويل مليء بالتكرار والتأكيد قام بخيانة حقيقة الأمر ولم يكن إلا أداة لحفظ الوجه. ومؤشرا على نصر وهمي بالكامل.

### 3. العار

ليس «الوجه» إلا مثالا واحدا على جانب من الشخصية العربية يحدده الآخرون ويتوجه إليهم. وفي نفس المجال يقع الدور الذي يلعبه العار في الوعي العربي. ويجب التمييز بحذر ما بين العار والذنب. ويعرف العار بأنه شأن ما بين الفرد والمجتمع. بينما الذنب في الأساس شأن بين الفرد ووعيه. ومن ينعزل لوحده في الصحراء قد يشعر بالذنب. لكنه لن يشعر بالعار.

من أهم الاختلافات بين شخصية العربي وشخصية الغربي أنك ترى العار أكثر تواجدا في الثقافة العربية مقارنة بالذنب. وكنا ناقشنا عدة مفاهيم عربية كالشرف واحترام النفس والوجه بالقدر الكافي لتوضيح أن دلالاتها جميعها ذات منحى خارجي أساسا. وما يضغط على العربي للتصرف بطريقة مشرفة ليس الخوف من الذنب وإنما العار. أو بشكل أدق: الدافع النفسي للنجاة أو الوقاية من التقييم السيئ للآخرين. وللباحثة سانيا حمادي بحث وافٍ حول جانب من الحياة العربية تدعوه «مجتمع العار» ووصلت إلى الاستنتاج بأن الهم الأساسي للعربي في أداء عمل أو تجنبه هو «ما إذا كان سيشعر بالعار إن علم به الناس.

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

وأهم مقياس لخياراته هو «ماذا سيقول الناس؟» وبترسخ الشعور بالعار في الجيل الصغير من خلال تقنيات العار. كأن يقارن الطفل بغيره مثلا. وهو من أساليب تنشئة الطفل واسعة الانتشار في لبنان ومصر وربما في غيرها من الدول العربية أيضا.

### 4. شخصية «الفهلوي»

يمكن القول بدقة أن كون العار على مستوى عالٍ من الأذى والخطورة للعربي. وما للخوف من العار من ضغط نفسي لا يضاهاه. يؤدي إلى أن استجابة العربي دائما ما تأخذ شكل مجرد انسجام خارجي مع متطلبات أخلاقية لا تتوفر شروطها على ميدان الواقع. إن الهم الذي يتملك شخصية كهذه هو الحفاظ على الوجه. والظهور كشخص يتمسك بالأعراف الأخلاقية في مجتمعه. ومثل هذا الاعتبار. عندما يصبح مسيطرا على نفسية الفرد. قد يحوله إلى ما يدعوه عالم الاجتماع المصري المرموق. د. حامد عمار. بـ«شخصية الفهلوي» في كتابه (في بناء البشر).

ينحدر مصطلح «الفهلوي» من كلمة في اللغة الفارسية تعني الشخص حاد الذكاء. ومع ذلك. كانت الصورة التي رسمها د. عمار للفهلوي باعتباره الشخصية المصرية النمطية تتكون -كما يعترف هو نفسه- بمعظمها من صفات سلبية. وبعد أن يضع الأسس النظرية لبحثه. يتساءل د. عمار: «ما هو الوسط الاجتماعي الحالي للشخصية المصرية الذي أثرت في تكوينه عوامل الزمان والمكان وطريقة الحياة؟» ثم يشرح بأن ما عناه بكلمة «وسط» إنما هو «الاستجابات الثابتة التي تتكرر في أوضاع معروفة جيدا. والتي يتوقعها المجتمع ويفضلها على غيرها...» وأن «الوسط الاجتماعي» هو مفهوم مشابه «للوسط» الإحصائي.

أول صفة بيّنها د. عمار من صفات الفهلوي هي «التكيف الجاهز». فالفهلوي لديه «القدرة على التكيف بسرعة مع أوضاع مختلفة. ومعرفة الاستجابات التي تتطلبها هذه الأوضاع.» إنه قادر على ضبط «سلوكه بحسب هذه المتطلبات إلى المدى الذي يراه

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

مناسبا.» ورغم ذلك، يلاحظ د. عمار أن لهذه الجاهزية في التكيف جانبين اثنين: أولهما المرونة الحقيقية والقدرة الفطرية على تمثّل الجديد ومحاكاته، والآخر «الجاهزية لإبداء اتفاق مظهري وتعاطف سريع يهدف من ورائه إلى التكتّم على الوضع وإخفاء المشاعر الحقيقية.» ويستمر د. عمار بالشرح فيرى أن هذا النزوع إلى التظاهر والنفاق والاتفاق المظهري تم غرسه في الشخصية المصرية عبر سلسلة طويلة من الحكام والسلاطين والملوك الذين كان على الناس أن يخضعوا لهم، ومن لم يفعل كان جزأه العقاب الشديد، ويقول د. عمار: «أصبح التكيف السطحي بسبب هذه الظروف شأنًا في منتهى الضرورة للبقاء.... وأدى ذلك إلى أن الناس كان عليهم أن يفرحوا لفرح الحاكم ويحزنوا لحزنه.» وعندما جاء دور الامبريالية الغربية، كانت هذه النزعة للاتفاق السطحي قد تجذرت.

وثمة صفة أخرى للفهلوي هي سرعة البديهة وحس النكتة. فمن الأمور التي يستجيب بها المصري على الإخفاقات المتتالية التي تصيبه أن يواجهها بتعليقات ساخرة. وهو يحصل على الرضى الشخصي من هذا التذاكي ويجد فيه تهدئة وخروجًا عن الواقع. وفي النكتة مجال لتنفيس الغضب وملجأ يجعل الحياة قابلة لأن تطاق. ومع أن باقي الشعوب تمارس ما يشبه النكتة، فإن الشعب المصري وحده قام بتطويرها لتصبح فنا حقيقيا وأصبح يعتبرها صفة محببة في الشخصية. ومن أهم وظائف النكتة أنها تقوم بتغطية المشكلة، وتخفيف وطأتها، وتجاهلها على نحو يحمي الشخصية من أن تضطر للتفكير بجديّة حول الواقع. وكان «فرقة» النكتة تهديء المسألة أو تحمل حلا لها.

ومن خصائص الفهلوي التي ناقشها د. عمار: فرض الذات. وتظهر هذه الصفة على شكل «تأكيد مبالغ فيه للشخصية، والميل بإصرار لإظهار قدرات المرء في التحكم والهيمنة على الأمور.» ويفرق د. عمار ما بين هذه الصفة والاعتداد بالرأي الناتج عن الثقة بالنفس والتفهم المناسب للعلاقة ما بين القدرات الذاتية والمواقف الخارجية. فهي، خلافا لذلك، «نتج عن فقدان الثقة ونقص الرغبة في تقييم الموقف بشكل موضوعي.» ويتمثل الشكل المتطور من هذه الاعتدائية المفرطة بالنفس في أنها تأخذ بمرور الزمن

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

شكل التهور، أو انتفاص الآخرين، أو القدرة الاستثنائية على حل القضايا أو التخلص منها من خلال «حركة إصبع أو جرة قلم»، ويتصف الفهلوي بالإفراط والمبالغة وزخرف القول. وتقع مسألة المظهر الخارجي و«حجم الحظيرة» إلى ذلك النوع من الاعتداد بالذات والذي يتمظهر حتى في الأبنية التي يقلل مظهرها الخارجي من شأن ترتيبات بنيتها الداخلية ونوعيتها. ويتمظهر ذلك أيضا في ما يعرف بعادة «الزخرفة» في السلوك والحديث.

ويحدث د. عمار بأن الحافز الملحّ لفرض الذات هو السبب الرئيسي خلف البذخ في الولائم، والتأكيد على ترك انطباع أولي، ومسألة الكرامة الشخصية، والاهتمام بعادات الأعراس والمآتم، وكل ما يمت بصلة إلى نطاق «جبهة الشخصية» سواء على الصعيد الفردي أم الاجتماعي.

لذلك، يستنتج د. عمار أنه ليس من الغريب أن الكلام المعسول هو من أهم الوسائل التي يعتبرها الشعب المصري فعالة في تأسيس نوع من العلاقة الشخصية بشكل سريع بين المرء والآخرين. ومن الجانب الآخر، يؤدي فرض النفس إلى الميل للاستخفاف بالآخرين، وإهانتهم تصرّحا أو تلميحا، والتقليل من قيمة الآخرين وأفعالهم، وازدراءهم؛ إن من يقوم بهذه الممارسات يحظى بالكثير من الإعجاب والتقييم، وفي شخصية جحا التي يحتفي بها التراث المصري، صورة تشخص الجانب السلبي من الشخصية التي تمارس فرض النفس.

وبعد ذلك يولي د. عمار اهتمامه لخصيصة أخرى من خصائص شخصية الفهلوي: وهي النظرة الرومانسية تجاه المساواة. ويعدها «إحدى أهم قيم المجتمع المصري»، وهي محصلة للمرارة التي يُشعر بها تجاه ظروف البلاد التي قادت إلى التمييز وانعدام المساواة. ويعود لها رفض قبول السلطات أو القيادات واستهجانها النابع من أعماق الوعي؛ وذلك رغم المظاهر الخادعة التي يبديها الناس تجاه قاداتهم والمتمثلة في عبارات الاحترام وطقوسه التي تحجب في كثير من الأحيان مشاعر خفية من الحنق التي تشير إليها

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

عبارة «فلان يتصرف كقائد..» ولا ينظر الفهلوي إلى السلطة أو القيادة على أنها أمر ضروري وإنما يعتبرها قوة لا تقاوم يستسلم لها المرء خائعا عندما تزرع الخوف والرعب في نفسه. وفي هذه النقطة يقدم د. عمار أمثلة تاريخية لتوضيح الظروف التي طبعت الشخصية المصرية بطابع الخوف من السلطات إلى حد جعل الفلاحين لا يحترمون من جباة الضرائب إلا من لا يرحمهم بينما يستخفون ويستهنون الذين يرأفون بهم. ومع ذلك، بقيت فكرة المساواة قوة محفزة في سلوك المصريين وإحدى القيم اللافتة التي تسحرهم.

وهكذا، يرى د. عمار أن من أهم الموارد النفسية التي تستقي منها شخصية الفهلوي هي تقنية «النقل والإحالة». فبواسطة نقل المسؤولية إلى الآخرين أو إحالتها إلى نطاق يخرج عن مجاله، يصبح من السهل تبرير أي وضع محرّج يقع فيه المرء أو إهمال لمسؤولياته الاجتماعية. ويزداد مستوى «الفهلوة» بازدياد القدرة على إجادة هذه التقنية.

إن ما يحفز الفهلوي ليس الإخلاص للواجب، أو الأمل في تحقيق الذات، وإنما الرغبة في الحصول على الثواب أو تجنب العقاب. وإحدى أهم تمظهرات الإحالة هي الشكوى اللفظية الدائمة من سوء الحظ، وعدم الرضى عند التسريح من العمل، وتحميل المسؤولية بشكل دائم «للحكومة» و«العمدة» و«الإدارة» وأي عامل خارجي قابل لأن يكون عذرا لحصيلة عمل ما. وبينما يعد الميل إلى لوم الغير على الفشل إخفاقا إنسانيا عاما، فإن الظروف الخاصة اجتماعيا وسياسيا التي عايشها المصريون لآلاف السنين قد تفاقمت فيهم على مدى واسع.

وثمة خصيصة أخرى لشخصية الفهلوي هي الاعتماد على العمل الفردي وتفضيله على العمل الجماعي. وينتج هذا الميل من الرغبة في فرض شخصية المرء على الآخرين وتجنب الاحتكاك بهم. والعوامل التي تؤدي إلى ذلك هي: نظام الثواب الفردي، وتجزؤ الملكية، وبقايا العصبية القبلية. وهو أيضا يعتبر استجابة للقوانين والشروط المتعددة التي تحدد نمط الحياة في مصر. وعلاوة على ذلك، من الممكن أن ضغط المجتمع بمؤسساته المختلفة

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

وتشديده على الانصياع الشكلي لمطالبه قد أدى في الحقيقة إلى خلق نزعة مضادة تتمظهر في الميل إلى التفرد الجريء. وهذا يظهر في أمثال كـ«الإبريق المشترك لا يغلي» و«حصير أملكه خير من منزل مشترك.» ومع ذلك، إذا كان النشاط الجماعي أمرا لا مناص منه، فلا اعتراض على الانصياع الشكلي لنوع مفبرك من هذا النشاط. دون وجود التزام حقيقي كضرورة للمسؤولية الجماعية.

إن نزعة الاعتماد على الذات تعود إلى محاولة تحقيق الهدف بأقصر طريق ممكن. وذلك يقود أحيانا إلى الحماس والإقدام وعدم الاهتمام بالصعوبات وهي أمور تجعل المرء قادرا على تخطي المعوقات بنجاح. وعندما يتطلب العمل إصرارا وصبرا، يتضاءل حماس الفهلوي. ويخبو تلهفه وتصميمه. إن هذا البحث عن الإنجاز السريع السهل تجده في شخصية الكثير من الطلبة المصريين: فعوضا عن الدراسة الجادة من أجل الامتحان، يحاولون النجاح دون جهد. وحتى الحرفيون المصريون، فإنهم ينقصهم شيء من الاهتمام في إنهاء أعمالهم. وذلك على الرغم من مهاراتهم وقدراتهم.

وفي نتيجة تحليله لشخصية الفهلوي، يشير د. عمار باقتضاب إلى بعض من جوانبها الأخرى: كالتأكيد على الرجولة والشرف، وموقفه من مستحدثات الأمور، وإنتاجيته، وعمله؛ ويبرر د. عمار تشديده على ذكر نقاط الضعف دون نقاط القوة في الشخصية المصرية بالتصريح عن إيمانه بأن مثل هذا التحليل هو «ضرورة لا بد منها وخطوة أساسية في إعادة بناء المجتمع.»

كانت النتائج التي توصل إليها د. عمار محل تشديد وتكرار عند د. صادق جلال العظم، وهو مفكر عربي يساري كان يدرّس الفلسفة في الجامعة الأمريكية في بيروت وجامعة عمان. فهو يشدد في كتابه (النقد الذاتي بعد الهزيمة) على أن الفهلوي يحاول دائما أن يسلك كافة الطرق المختصرة لإنجاز هدفه دون أي جهد. وإذا ما توجب عليه أن يقوم بمهمة فإنه لن يبذل جهدا لتنفيذها على الوجه الأمثل، بل إنه، وعلى العكس، سيكتفي

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

بإبهار الآخرين بقدرته على تنفيذها كي لا يقول الناس عنه بأنه عاجز. ولا يهتم الطالب الفهلوي إلا بالنجاح الشكلي في التعامل مع دروسه، وبالانطباع الخارجي. ويلجأ دائما إلى الوسائل المحظورة في سبيل ذلك، وهو يحاول التزلف إلى مدرسه أو يقوم برشوته، ويغش في الامتحان. ويجتهد في الاطلاع على الأسئلة مسبقا، وتتمحور أحلامه حول الحصول على نسخة من أسئلة الامتحان قبل الموعد المقرر. أما كابوسه الأكثر رعبا فليس الفشل بذاته، إنما هو العار الذي يلحق به إن اكتشف الآخرون فشله. ولهذا، يقاسي الكثير ممن الطلاب الراسبين ألما عظيما في إخفاء الحقيقة عن أسرهم وأصدقائهم. وعندما ينهي الطالب الفهلوي دراسته ويصبح مسؤولا كبيرا في المؤسسات الحكومية، أو ضابطا في الجيش، فهنا تقع الكارثة، لأنه سيستمر باستعمال وسائله الفهلوية في إنجاز مسؤولياته. وبسبب هذه الخصائص التقليدية، يعجز العرب عن قبول الحقائق بالسرعة والمرونة التي تقتضيها المواقف الحرجة، وتراهم مجبرين على إخفاء الفشل من أجل الحفاظ على المظاهر والإبقاء على احترام النفس.

وتتصف شخصية الفهلوي بالتضخم، ويملؤها الإحساس بأهمية الذات، وهي مستعدة دائما لإظهار معرفتها وتفوقها العالي، وسيطرته على الوضع. ويرافق ذلك شعور باحتقار الآخرين، وبالأخص لمن يبذل جهدا حقيقيا في سبيل إكمال عمله على الوجه الأتم.

ومثل هذا الشخص يعاني عادة شعورا بالدونية، ولكنه غير قادر على البوح به لأنه واقع تحت سيطرة مفهوم العيب والخوف منه أكثر مما يتقبل الواقعية والموضوعية. ولهذا السبب، يرى د. العظم أن شخصية الفهلوي بارعة في التظاهر السطحي والتأدب المؤقت والتي تؤدي بمجموعها إلى حجب الوضع كما هو في الواقع لإخفاء المشاعر الحقيقية، ويتم التعبير عن ذلك بعدة عبارات نمطية مثل: «لا يهم، كل شيء على ما يرام، كلنا إخوة». وهذه الخبيصة نفسها تميز العلاقات ما بين الدول العربية: فالتوافق الرسمي الذي يعبر عنه باللباقة والتهذيب والإخاء من دون أي إخلاص حقيقي لمقتضيات مسؤوليات الجماعة، حتى ولو كانت هنالك حاجة ماسة لعمل جماعي مخطط ومتفان.

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

عندما يجد الفهلوي نفسه في موقف لا مفر فيه من انكشاف كافة نواحي ضعفه وفشله، فإنه يميل إلى نفي مسؤوليته بالكامل وتحميل مسؤولية النتائج السلبية لأعماله إلى قوى خارجية. تماما كما لا يلوم الطالب الفهلوي نفسه على رسوبه في الامتحانات، وإنما يلوم الحظ السيئ، والمعلم، والأسئلة الصعبة، والدولة، والنظام، والرب. وكذلك تلوم الدول العربية العدو، والامبريالية، والخيانة، والحظ السيئ، وأي شيء آخر ما دام لا يتعلق باجتثاث جذور المشكلة وتدميرها.

ويرى د. العظم أن من الواضح للعيان أن الفهولة ترتبط مباشرة بمفاهيم الشهامة والمرورة والشرف والشجاعة والمهارة. وفي الواقع، تزدهر شخصية الفهلوي في المجتمعات التي تحركها الأعراف حيث تكون الأنظار متوجهة إلى العادات والتقاليد القديمة الراسخة بقوة. وتميل هذه الظروف إلى تنمية شخصيات محافظة، وأشخاص بطيئي التقدم، ومتكيفين مع إيقاع بيئتهم، ولا يتصفون بنزعة البحث عن حلول جديدة للمشاكل القديمة. وهذا يفسر أيضا نظرة التقييم التي ينظر بها هذا المجتمع إلى الكهول عوضا عن الشباب، دون اعتبار للكفاءات الفردية لأي منهم، ويمنح حقوقا خاصة للناس دون النظر إلى مؤهلاتهم الحقيقية.

ومع أن الصورة التي رسمها لشخصية الفهلوي كل من د. عمار ود. العظم هي بالتأكيد صورة من جانب واحد وتحتوي على المبالغة، وبما أن غرض د. العظم -بالأخص- كان استنهاض العرب لبذل جهود استثنائية لمعالجة الفشل الذي قدم وصفا له، فإنه لا شك في أن القدرة الفائقة لمفاهيم الوجه والعار تجعل الناس يتصفون بشخصيات ضعيفة متكيفة تتجه نحو نمط «الفهلوي» وعندما يتركز اهتمام المرء على الجانب الخارجي لسلوكه، فإن القيم الحقيقية بعيدة عن أن تكون أساسا لتصرفاته.

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

### 5. النفور من العمل البدني

النفور من العمل اليدوي، وبالأخص ما يتضمن اتساخ الأيدي، هو موقف بدوي آخر تأثر به العقل العربي على مدى واسع. وإلى يومنا هذا لا يزال هناك ضمن البدو من يعتقد بأن مزاولة الزراعة أو الأعمال المهنية أمر مهين. وهذا التفضيل لحياة التعطل، أو -على الأقل- للعمل الذي لا يتضمن استخدام القوة العضلية على اعتبار أن الأغلبية الساحقة من العرب لا تستطيع التعطل عمليا. يعود بشكل مهم إلى كل من التطور التاريخي للثقافة العربية وعمليات التغريب.

لنبدأ أولاً بمثال يقوم في نفس الوقت برسم صورة للاختلاف في الموقف -على هذا الاعتبار- بين العرب والأمريكيين. يتحمس الكثير من الطبقة الوسطى أو العاملة من الأمريكيين للقيام ببعض التحسينات الصغيرة على منازلهم. وإذا كان لديهم حديقة، قاموا بجز العشب وسقايته، وتقليم الشجيرات، وتوزيع السماد، وجمع الأوراق المتساقطة، وزراعة بعض النباتات، والقيام بأمر أخرى يرونها ضرورية. والكثير يصبغ غرف المنزل أو يكسوها بورق الجدران، ويبلط الأرضيات بالقرميد. ومعظمهم يغسل سيارة الأسرة ويلمعها ويفخر بقدرته على أداء بعض التصليحات الصغيرة عليها. إن هذه الجاهزية لدى الأمريكيين في «افعلها بنفسك» يتواجد عكسها لدى العرب بكل ما في الكلمة من معنى. وذلك من خلال تقاعس العربي عن مزاولة أي نشاط من هذه الأنواع، أو -في الواقع- عدم الإقدام على أي عمل ذي طبيعة يدوية. صحيح أن اليد العاملة متوفرة في الدول العربية بثمن بخس لأداء تلك الأعمال بينما تمنع الأجور الباهظة للعمال في أمريكا من توظيفهم للعمل ذاته، لكن القصد من وراء المثال ليس الكلفة أو التوفير، إنما هو حقيقة محبة الأمريكيين لأداء مثل هذه الأعمال، بينما لا يكتفي العرب من نفس الطبقة الاجتماعية الاقتصادية بكره هذه الأعمال، وإنما يعتبرونها أمرا مهينا.

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

سأورد مثالا عشوائيا على ما قاله الكثير ممن لاحظ هذه الصفة عند العرب وعلّق عليها. فهذا الدكتور ويليام داريتي (Dr. William A. Darity)، وهو ممن له خبرة عميقة ببرامج العناية الصحية في الشرق الأوسط. يخبرنا بأنه في إحدى الدول اقترب منه ستة طلاب يريدون منه المساعدة في الحصول على عمل ليتمكنوا من الالتحاق بالدراسة الجامعية. فتم الترتيب لهم كي يعملوا في شركة بناء كمساعدين للمشرفين على المواقع التي يتم البناء فيها. لكن واحدا منهم فحسب قبل العمل، وأخبر الباقيون داريتي أنهم كانوا يرغبون بعمل مكتبي، مع أن العمل الميداني كان ذا مرتب أكبر بكثير من مرتب العمل الذي أرادوه. وبعد سنوات، التقى داريتي باثنين ممن رفضوا العمل وكانا يعملان ككتبة بأجر منخفض جدا، على اعتبار أنهما لم يتمكنوا من الدراسة في الجامعة، ولكنهما كانا لا يزالان مصريين على أنهما لا يستطيعان القبول بهذا النوع من الأعمال. ولاحظ خبير في الشؤون الإدارية أن المنزلة الدنيا للعمل اليدوي في مصر تشجع التمايز الطبقي وتقف عائقا دون التعاون والتواصل وإتاحة الفرص للتقدم.

إذا كان العمل الذي أشرنا إليه يجب أن يمارس في العراق، فإن النفور منه يشتد. وفي ذلك يقول خبير بريطاني في مجال العمل في الدول العربية المجاورة لإيران: «في هذه البلدان، يكره السكان العمل في العراق. لذلك يتم إنجاز الأعمال بشكل رئيسي من خلال الاستعانة بالعمال الإيرانيين.»

ما هي الحوافز النفسية التي تجعل العمل البدني مرفوضا للعرب من الطبقات التي تلي الطبقة العاملة؟ ولماذا يتفاحس العرب إلى هذا الحد عن أي عمل يوسخ اليدين، ما لم يجبروا على ذلك بحاجة ماسة لكسب المعيشة «بعرق الجبين»؟ يكمن أحد الأجوبة في نص من الكتاب المقدس يحتوي العبارة السابقة. حيث ورد في الكتاب المقدس عن اللعنة التي وجهها الرب إلى آدم بعد أن أكل جد البشرية من الفاكهة المحرمة لشجرة المعرفة:

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

وقال [الرب] لآدم: لأنك أذعنت لِقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها. فالأرض ملعونة بسببك. وبالمشقة تقعات منها طوال عمرك. (18) شوكا وحسكا تنبت لك وأنت تأكل عشب الحقل. (19) بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض. فمن ترابٍ أُخِذتَ، وإلى ترابٍ تعود<sup>1</sup>.

إن هذه الأسطورة القديمة المثيرة لا تقتصر في الإجابة على أسئلة مثل: لماذا يجب على الإنسان أن يكدح طيلة حياته؟ لماذا عليه أن يموت ويدفن؟ وإنما، وبشكل أكثر أهمية لاعتبارات معاصرة، تعبّر وتنظّم وتشترع موقفاً من العمل لا يزال إلى يومنا هذا مميزاً للشخصية العربية في المنطقة التي صدرت منها هذه الأسطورة. ويمكن صياغة هذا الموقف بعبارة أكثر دقة: العمل لعنة. إن هذا المفهوم هو الضد النوعي للأخلاق البروتستانتية، والتي تعتبر العمل فضيلة وأمرًا يعلي شأن المرء. في أخلاقيات الشرق الأوسط، ومنذ عصور ما قبل الأحداث التوراتية وحتى عصرنا الحاضر، كان المثل الأعلى دائماً هو الهرب من لعنة العمل، والحصول على الغنى، وحتى اكتسابه، من خلال ضربة حظ، أو العثور على كنز، أو عطية من أحد الملوك، أو شراء شيء رخيص وبيعه بثمن مرتفع، أو الحصول على عون من جني. ونجد أمثلة عديدة عن هذه الأخلاقيات في قصص (ألف ليلة وليلة)، وهي مجموعة قصصية ثمينة توفر سجلاً للتقاليد العربية في العصور الوسطى وتشكل مرآة صادقة لجوانب الحياة في ذلك الوقت والمعنقات والقيم والاهتمامات. وفي بداية إحدى القصص نقرأ أنه في أحد الأيام عاش في بغداد رجل غني فقد ثروته كلها وأصبح معدماً إلى درجة أنه لم يعد يقدر على كسب عيشه إلا بغير العمل الشاق. ومن الواضح أن كلاً من مؤلف الكتاب ومن يتمتع بالإصغاء إلى رواية قصصه ينظران إلى كسب المعيشة بالعمل الشاق على أنه من أسوأ المصائر التي قد تلحق بالمرء.

هذه الأخلاقيات تعتبر العمل بجميع أنواعه لعنة، وبالأخص العمل الذي يؤدي للتعرق. وقبل كل شيء، فإن حرث التربة، والعراك مع الأشواك، والكدح والتعرق في سبيل أن يثمر

(1) الكتاب المقدس: سفر التكوين (3 : 17-19).

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

النبات. تلك هي اللعنة وقيد الحياة والمعيشة. عندما لعن الرب آدم. حكم عليه بأن يكون فلاحا -هكذا يقرأ العرب النهاية الحزينة لقصة الطرد من الجنة. والمحظوظ هو الواحد بالمئة الذي يستطيع أن يكسب عيشه دون أن يعرق في سبيل ذلك. حيث ينعم براحة مكتبه أو دكانه. مستظلا بسقف وجدران تقيه من أشعة الشمس الحارقة. ولسع الحشرات. والريح الغبارية. وأوساخ التراب.

على الرغم من أن العمل اليدوي هو مصير لا مناص منه للقرويين (ما عدا المعلم. والحارس. وإمام المسجد). فإن كراهية هذا النوع من الأعمال ليست على قدر يمكنها من أن تشكل جزءا من الجو الاجتماعي الذي يؤثر على مشاعر الطفل. وثمة مثال مفاجئ على ذلك في الأجوبة التي قدمها أغلبية المراهقين الذكور في قرية لبنانية مسلمة على السؤال: «إذا كانت لديك الإمكانيات لتغيير شيء ما في حياتك. فماذا ستغير؟» حيث أجاب 20 من أصل 35: «أن لا يتوجب علي أن أعمل بيدي.» أو عبارات لها نفس المؤدى. وبما أن المراهقين الذي سئلوا كان يتوجب عليهم في الواقع أن يعملوا في أراضي أهاليهم. فإن العبارة السابقة تعني عدم القيام بأعمال الحقل. وبرغم ذلك. ربما يكون من المهم الإشارة إلى أن الرغبة في التحرر من العمل الزراعي جاءت بصيغة لغوية أشمل: عدم لزوم العمل اليدوي. وبهذه الصيغة الأشمل بقيت كراهية العمل اليدوي خصيصة من خصائص الشخصية العربية حتى ضمن شرائح المجتمع الأكثر تمدنا.

يعيش 90% من العرب في قرى أو بلدات. وتختلف حياتهم كثيرا عن حياة البدو. لكن المثل البدوية استمرت فيهم مهما بعدت المسافة بينها وبين الواقع المعاش. وفي هذه المثل تكون السمة الأساسية هي كراهية العمل البدني بكافة أنواعه مع استثناء الرعي والغارات. واللذان يعتبران المهنتين الوحيدتين اللتين تلائمان الرجل الحر. ومن بين أنواع العمل المكروه تأتي الزراعة في المرتبة الأولى من ناحية التشديد على الرفض. فمثلا تؤدي المشاركة في الحصاد إلى خسارة المنزل بشكل لا يمكن تجنبه أو إصلاحه؛ وفي الواقع. يلحق العار بالبدوي جراء ذلك. وبسبب من هذا الاحتقار للزراعة. لم تلق محاولات دفع البدو

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

للاستقرار إلا نجاحا ضئيلا. وحتى إن استقروا فسيلزمهم سنوات عديدة لتحقيق ذلك. وسيبقى البدو المستقرون على تنظيمهم العشائري لعدة أجيال ولن يسأموا من الإشارة بفخر إلى أصولهم الصحراوية.

يعتبر الوعي الجماعي ظاهرة إنسانية عامة. يرافقه في ذلك التقييم العالي الذي يضمه المرء لقومه والاحتقار الذي يشعر به تجاه غيرهم. و«نحن» هي المفضلة على «هم» في كل مكان تقريبا. ويشكل الفلاحون العرب استثناء مميّزا لهذه القاعدة العامة. ففيهم ترسخ التراث الروحي أو التأثير الجلي للأخلاقيات البدوية التي تجعلهم دون شك في منزلة أدنى من منزلة البدو. والاستسلام لذلك كإحدى حقائق الحياة التي لا سبيل إلى تغييرها. وعند الفلاحين. كما البدو. يعتبر العمل في الأرض أمرا متدينا. إن لم يكن مشينا. وعلى هذا الأساس. يسعى الجميع إلى انتهاز أي فرصة للخلاص من عبودية الأرض.

كانت مثل هذه الفرصة في الماضي أمرا نادر الحدوث. إذ كان الفلاح ينشأ في العادة دون تعليم. ويتعلم من والده حرفة واحدة فقط: العمل في الأرض. كما يتعلم أن كونه فلاحا يضعه في أسفل الهرم الاجتماعي. وأن مكانته تحددت بمشيئة الله. وما على المرء إلا أن يطيعه. إن الله هو الذي جعله عبدا للأرض. وهكذا سيبقى.

لكن سحر البلدة له أثره الذي لا يخفى على أحد. فمن خلال زيارته النادرة لها ومشاهدته لشوارعها وأسواقها. يشعر الفلاح أنه يُنظر إليه بدونية من قبل أهالي البلدات والبدو. ومع ذلك. يحاول الفلاح أن يجد له عملا في البلدة. وربما يضطر للعمل هنالك بسبب عدم وجود فرصة عمل له في القرية. ويتمثل الطريق المعتاد في الخلاص من هذه الضائقة الاقتصادية بالبحث عن عمل كمساعد لأحد أقربائه. أو لأحد القرويين إن لم يجد من بين أقربائه من هو بحاجة له. ولكن هذه الطريق بعيدة كل البعد عن أن تشده إليها. فبالإضافة إلى فقدان الوجه في مجتمع فلاحي القرية. ليست الأجور التي تدفع إلا أقل ما يمكن. لذلك تتوجه أفكار الشاب القروي أولا إلى البلدة. صحيح أنه لا يستطيع أن يحلم بأكثر من أن يكون عاملا

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

باليومية بأجر قليل، ولكنه على الأقل لن يعاني فقدان وجهه، وذلك لتواجده بين غرباء. وربما يكون لديه فرصة للنجاح في عمله.

لعدة أجيال مضت، تسببت الهجرة من الريف إلى المدينة بنمو تدريجي بطيء للعديد من المدن. أما القرى التي كانت دائماً تزود الناس بأكثر ما تستطيع من طرق الزراعة التقليدية الثابتة، فإنها بقيت بالمجمل تحتفظ بعدد السكان ذاته. لكن خلال الأجيال الثلاثة أو الأربعة الماضية بالأخص، شهدت القرى ازدياداً في عدد السكان بسبب استقرار بعض القبائل البدوية التي لم تستطع الاستمرار في ممارسة مهنتها التقليدية في رعي المواشي. فلم يدع الحال خياراً لهذه القبائل إلا بأن تعيش في المناطق الهامشية من الناحية الزراعية، ولهذا كانت محاصيل هذه القبائل من النوع الرديء. وهذا دفع بعض شباب القبائل إلى البحث عن عمل في المدن أيضاً. وأحياناً كانت الهجرة تحصل خلال جيل واحد من البدء بالعيش في القرية. إن للهجرة من الريف إلى المدينة له دوافع عاطفية بالإضافة إلى أخرى اقتصادية، فمن خلال التوجه إلى المدينة، يشعر (الفلاح حديثاً-البدوي سابقاً) أن حياته قد تحسنت بقدر ما يراعى مقامه؛ فهو استطاع النجاة من أكثر أنواع العمل البدني إذلالاً: «العبودية للأرض».

إن الاحتقار الذي يشعر به سكان المدن تجاه الفلاحين ينبع من مصدريين أساسيين. أولهما: أثر الأخلاقيات البدوية الذي لا يزول سريعاً، والآخر: الفجوة الثقافية التي تفصلهما. إذ يجد الحضري الفلاح شخصاً جاهلاً متخلفاً بدائياً فظاً، وبما أن الفلاح الذي ينتقل إلى المدينة ينخرط بشكل طبيعي في أبسط أنواع العمل الذي لا يتطلب الخبرة، فإن العمل دون خبرة والعمل الزراعي يرسمان صورة لبدائية الفلاح في ذهن الحضري. وفي الدول العربية مرت فترة كان العمل اليدوي فيها يرتبط بتصنيف طبقي في أحد جوانبه: وذلك بأن يقتنع العامل بأنه ينتمي إلى طبقة أدنى مع الكثير مما يقتضيه ذلك من الأمور التي يعجز عن أدائها، ومع ذلك لا يؤدي هذا الشعور إلى معالجة الوضع بتحسين وضع طبقته أو تجارته بشكل عام (كما حصل في الغرب) بل إنه يلجأ إلى الخروج بشكل فردي من طبقته إلى

# العقل العربي

## الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

طبقة أعلى ليس فيها عمل يدوي. ولا حاجة للقول بأن القليل جدا هم من ينجحون في إنجاز ذلك.

إن هذه الخلفية تشرح سبب تفضيل أبناء المدن الشباب لعمل مكثبي قليل الأجر على أن يكونوا معاونين لمشرف بناء بأجر أكبر بكثير. وفي الحقيقة، ليس الخيار الأول مفضلا فحسب، بل إن الخيار الآخر مستحيل كليا نظرا للسيطرة الكبيرة التي تمارسها القيم التقليدية على العقل العربي. ويمكن للمرء أن يحدس بأن جهدا عظيما صبورا ينبغي أن يبذل قبل أن يصبح العقل العربي قادرا على قبول مفهوم كرامة العمل.